الباب الرابع

العصر العباسي

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الأول :

الشعـــــر

اعتبر عمود الشعر عند العرب القاعدة الفنية الصحيحة لقول الشعر . وعدوا هذه القاعدة شاملة للمعنى واللفظ والصور الفنية وأسلوب الشعر وبنية القصيدة . واعتبروا من يخرج علي هذه القاعدة خارجا علي قواعد الشعر العربي وفنيته وطبيعته . كما اعتبروا هذا اخروجا عن عمود الشعر وعن الذوق العربي . واعتبرت القصائد الجاهلية هي النموذج الذى تحقق فيه عمود الشعر.

وعندما جاء القرن الثاني الهجري خرج الشعراء المجددون علي هذا العمود في بعض نواحيه وبذلك ظهرت فروق واضحة بين شعر المحدثين وشعر الأقدمين . فروق في منهج القصيدة بالثورة علي البكاء والوقوف علي الأطلال . وفروق في القواعد الفنية للشعر أيضا . بل هناك فروق أدخلتها الحضارة الجديدة . وثقافة العصر . مما نقل المجتمع الإسلامي نقلة فكرية ضخمة . ولنأخذ مثالا علي المعاني التي أدخلتها الحضارة الجديدة علي القصيدة في العصر العباسي .

يقول أبو نواس :

يـــا عاقـــد القلـــب منـــى هـــلاّ تـــذكرت حـــلا

تركـــت منـــى قلـــيلا مـــن القليـــل أقـــلا

يكـــــــاد لا يتجـــــــــزا أقـــــل في اللفـــــظ مـــــن لا

ولم يخرج المحدثون علي المعانى وحدها في عمود الشعر . بل خرجوا خروجا متعمدا مقصورا علي اللفظ . حتى ينقلوا الشعر من أرستقراطية البلاط إلي الشوارع حيث تحيا طبقات الشعب . وبذلك تراجعت الألفاظ الجزلة الضخمة وغلبت الألفاظ السهلة الرقيقة الخافتة التي كان الشعراء يلتقطونها من أفواه العامة في السوق أو في الطريق .

وقد حدث تغير كبير في بناء القصيدة والتحام أجزائها في القرن الثاني الهجري إذ انتهت أو كادت القصائد الطويلة بما تحوى من أغراض كثيرة . وكان نجاح الشاعر الجاهلي يتوقف علي براعته في الانتقال من غرض إلي غرض دون أن يحس السامع بهذه النقلة . وبعكس ذلك كانت أشعار المحدثين في معظمها مقطعات قصيرة تحوى كل منها غرضا واحدا ؛ لذلك لم يعد البيت الشعري وحدة منفصلة كما نرى في بعض الشعر القديم . وبدت القافية قيدا ثقيلا عند الشعراء المحدثين المولدين فقد أحسوا أنها تحرمهم من الانطلاق بخيالاتهم وأفكارهم .

ومع التجديد نشأ ضربان جديدان من الرجز :

الأول : تقفية المصراعين علي قافية واحدة

الثاني : جعل كل خمسة مصاريع في المقطوعة علي قافية واحدة .

وبهذا وجدت المقطوعات ذات البيتين والخمسة . وأول من استعمل التخميس بشارين برد . وقد نُسب لأبى نواس وأبى العتاهية شعر مزدوج .

يقول أبو نواس :

يـــا راقـــد الليـــل احـــذر مـــن الويـــلِ
لا تـــأمن الـــدهرا إن لـــه غـــدرا
الـــدهر ذو صـــروفٍ يرميـــك بـــالحيفِ
يـــا نفـــس يـــا نفـــس لقـــد مضـــى أمســـى
لابـــد مـــن بـــينٍ بـــين الفـــريقين
لا تطـــل النومـــا إن لـــه يومـــا
للـــدهر تقليـــب فيـــه أعاجيـــب
مـــن غالـــه الحـــين لم تـــره العـــين

وقد عارض أبو العتاهية هذه المزدوجة بمزدوجة أخرى .

يقول فيها :

إنـــا لفـــي اغـــترارٍ بالليـــل والنهـــارِ
حتـــى متـــى التـــوانى ونحـــن في التفـــانى
مـــا أوضـــح الســـبيلا وأســـرع الـــرحيلا
أمـــا تـــرى العيـــون مـــا تصـــنع المنـــونُ
أيـــن الـــذين كـــانوا أفنـــاهم الزمـــانُ
رأيـــت كـــل يـــومٍ فيـــه هـــلاك قـــومِ

ويعد وجود قافية مصرعه في داخل البيت وقافية متحدة في جميع الأبيات تجديدا في النظام الموسيقي للقصيدة العربية سواء كانت المقطوعة مزدوجة أم مخمسة أم علي شكل قواف داخلية متحدة غير القافية الموحدة الموجودة في آخر الأبيات ومثالنا علي ذلك قصيدة لأبي نواس في وصف الخمر.

يقول فيها :

سلاف دن ، كشمس دجن

كدمع جفن ، كخمر عدن

طبيخ شمس ، كلون ورس

ريب فرس ، حليف سجن

حتى تبدت ، وقد تصدت

لنا وملت ، حلول دن

فاحت بريح ، كريح شيح

يوم صبوح ، وغيم دجن

يسقيك ساق ، على اشتياق

إلي تلاق ، بماء مزن

يدير طرفا ، يعير حتفا

إذا تكفى ، من التثنى

وإذا تطرقنا إلي مضمون القصيدة في القرن الثاني الهجرى نجد أن الاتجاه الذاتي في الشعر العربي دخل مرحلة جديدة بعد أن كانت شخصيته تائهة في أوصافه التي يخلعها علي الأشياء . وأصبح الشاعر يعبر عن مآسيه الخاصة بعد أن كان يعبر عن المشاكل العامة .

يقول صالح بن عبد القدوس متحدثا عن مشكلة عماه :

عـــزاؤك أيهـــا العـــين الســـكوبُ

ودمعـــــك إنهـــــا نـــــوب تنـــــوبُ

وكنـــت كريمتـــى . وســـراج وجهـــى

وكانـــت لـــي بـــك الـــدنيا تطيـــبُ

فـــإن أكُ قـــد ثكلتـــك في حيـــاتى

وفـــارقنى بـــك الإلـــف الحبيـــبُ

فكـــل قرينـــة لابـــد يومـــا

سيشـــعب إلفهـــا عنهـــا شـــعوبُ

علـــي الـــدنيا الســـلام فمـــا لشـــيخ

ضـــرير العـــين في الـــدنيا نصـــيبُ

يمـــوت المـــرء وهـــو بعـــد حيـــاً

ويخلـــف ظنـــه الأمـــل الكـــذوبُ

يمنينـــى الطبيـــب شـــفاء عينـــى

ومـــا غـــير الإلـــه لهـــا طبيـــبُ

إذا مـا مـات بعضـك فابـك بعضـا

فـــإن الـــبعض مـــن بعـــض قريـــبُ

وكانت مشكلة الفقر من المشاكل التى عانى منها الشعراء وعبروا عنها ، ولعل أبا الشمقمق بدون منازع هو شاعر الفقر ، إذ أكثر من تصويره والإبانة عنه في شعره.

يقول أبو الشمقمق في إحدى قصائده الذائية :-

بـــرزت مـــن المنـــازل والقبـــاب

فلـــم يعســـر علـــي أحـــد حجـــابي

فمنـزلى الفضـاء ، وسـقف بـيتي

سمـــــاء اللّه أو قطـــــع الســـــحابِ

فأنـــت إذا أردت دخلـــت بيتـــى

علـــىّ مســـلما مـــن غـــير بـــابِ

لأنـــى لم أجـــد مصـــراع بـــاب

يكـون مـن السـحاب إلـي الـترابِ

ولا انشـقّ الثـرى عـن عـود تخـت

أؤمـــــل أن أشـــــاربه يبـــــابى

ولا خفـــت الإبـــاق علـــي عبيـــدى

ولا خفـــت الهـــلاك علـــي دوابـــي

ولا حاســـبت يومـــا قهرمـــانى

محاســـــبة فـــــأغلظ في حســـــابي

وفي ذا راحـــــة وفـــــراغ بـــــال

فـــدأب الـــدهر ذا أبـــدا ودابـــى

وقد انقسمت الصنعة الفنية في القرن الثاني الهجري إلي نوعين :

الأول : الصناعة اللفظية :

وهى تلك الزخرفة التي أحدثها الشعراء من جناس وطباق ومقابلة وتورية ومراعاة نظير وما إلي ذلك .

الثاني : الصنعة المعنوية :

ونعنى بها الصورة الشعرية التي ترتكز علي التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وغير ذلك من ضروب التصوير . وهذا التقسيم الذى أوردناه تقسيم شكلى لأن النوعين يكمل كل منهما الآخر.

ويرى البعض أن الصنعة اللفظية في شعر القرن الثانى الهجري من آثار اختلاط الفرس بالعرب . وإن كان هذا الأمر قد وجد منذ العصر الجاهلي إلا أن الشعراء المحدثين قد اهتموا بهذه الزخارف اهتماما كبيرا . وأولوها عنايتهم إرضاء لممدوحيهم . بالتالي وجدنا شعراء المديح يغوصون في الشعر الجاهلي . ينتقون منه ذخيرتهم في اللغة والأدب . ولم يستطع الموهوبون من الشعراء أن يخرجوا من هذه

الدائرة الضيقة إلا بشق الأنفس . فهذا أبو تمام يشبه ممدوحه بالأسد . ولكنه لم يقنع بهذا التشبيه . فيضيف علي هذه الصورة صورة أخرى بأن الأسد لو رآه لظنه من الرعب أسدا . وممدوحه يفوق الأسد . لأن الأسد يحمل علي كتفه اللبد بينما الممدوح يحمل علي كتفه شدائد الدهر.

يقول أبو تمام :

لو عاين الأسد الضرغام صورته

ماليمَ إن ظن رعبا أنه الأسدُ

شتان بينهما في كل نائبة

نهج القضاء مبين فيهما جددُ

هذا علي كتفيه كل حادثة

تخشي وذاك علي أكتافه الليدُ

والتجديد هنا لم يمس جوهر القصيدة . بل هو في جملته مبالغة ممقوته أراد بها إرضاء غرور ممدوحة . ونرى هذا الأمر أيضا عند شاعر كبير وهو البحترى الذى لم يكتف بتشبيه رفعة الممدوح بالنجوم بل زعم أن النجوم لو بلغت مجده لضلت مسارها .

يقول البحترى :

وللمهتدى بالله مجد لو ارتقت

إليه النجوم رفعة ما تهدّتِ

وبذلك أصبحت المبالغة هي السمة الغالبة علي شعر هذا العصر لا في المديح وحده بل في المطالع التقليدية لقصائد المديح . والتي أصبحت لا تمت إلي الشاعر بسبب قوى . وأصبحت أشعار الشعراء تفيض بالتشبيهات والمجازات التقليدية والتي تشابه في ترديدها الشعراء .

يقول أبو تمام :

إنـــا غـــدونا واثقـــين بواثـــق

بـــالله شمـــس ضـــحى وبـــدر تمـــامِ

مـــا أحســـب البـــدر المـــنير إذا بـــدا

بـــدرا بأضـــوأ منـــك في الأوهـــامِ

ويقول البحترى :

ورأوك وضـــاح الجـــبين كمـــا يـــرى

قمـــر الســـماء الـــتم ســـاعة يكمـــلُ

اليـــوم أُطلـــع للخلافـــة ســـعدها

وأضـــاء فيهـــا بـــدرها المتهلـــلُ

وعمومـا غايـة الصـورة الشعرية في الأبيـات لمست أوجـه الشبه البعيـد بـين الأشياء وأصبح المشبه به مجرد صورة متخيلة . ونلاحظ هنا أن التخيل الذهنى جنى علي التخيل العربي إذ صرف الشعراء عن الاهتمام بالناحية النفسية . ونقل

انفعالهم بمظاهر الطبيعة والحياة إلي الناحية المادية المحضة وخير مثال علي هذه المقولة قول ابن المعتز في وصف الهلال :

انظـــر إليـــه كـــزورق مـــن فضـــة

قـــد أثقلتـــه حمولـــة مـــن عنـــبر

فهذا الاهتمام بالجانب المادي للأشياء . وإغفال دلالاتها النفسية واضح كل الوضوح . فقد قصر اهتمامه بالهلال علي شكله المادي المحض دون أن يهتم بما يثيره مطلع الهلال في النفس من خواطر وأحاسيس وتصور.

وهكذا كان حال الشعر في القرن الثاني الهجري . شعراء يتجاهلون تجاربهم ويسيرون في الحياة بلا موقف . ويحاولون التجديد في معان محدودة ضيقة فينتهون إلي صور ذهنية مفتعلة . ومع ذلك لم يخلُ الشعر العباسي من تجارب صادقة وتعبير شعرى رفيع . ونزعات إنسانية سامية ونظرات فلسفية عميقة . فكلما بعدت القصائد عن شعر المديح كانت تعبيرا عن تجارب ذاتية أو أحداث اجتماعية .

ومن القصائد الجياد قصيدة البحترى في رثاء المتوكل . وهي قصيدة طويلة نقل فيها الشاعر أحاسيسه الحزينة نقلا فنيا مؤثرا . وإذا تأملنا كل كلمة نجد أنها تحمل شحنة من الألم والحسرة في مدلولها وموسيقا ها ، وكان لاختيار قافية الهاء ما يبين مقدار الفزع والأسى والألم الذى أصاب الشاعر .

يقول البحترى :

محـــل علـــي القـــاطول أخلـــق دائـــرة

وعـــادت صـــروف الـــدهر جيشـــا تغـــاوره

كـــأن الصـــبا تـــوفي نـــذورا إذا انـــبرت

تراوحـــــــه أذيالهـــــا وتبـــــاكره

ورب زمـــــان نـــــاعم ثـــــم عهـــــده

تـــرق حواشـــيه ويـــورق ناضـــره

تغـــير حســـن الجعفـــرى وأنســـه

وقـــوض بـــادى الجعفـــري وحاضـــره

تحمـــل عنـــه ســـاكنوه فجـــاءة

فعـــادت ســـواء دوره ومقـــابره

إذا نحـــن زرنـــاه أجـــدّ لنـــا الأســـي

وقـــد كـــان قبـــل اليـــوم يـــبهج زائـــره

ولم أنـــس وحـــش القصـــر إذ ريـــع ســـربه

وإذ ذعـــرت أطـــلاؤه وجـــآذره

وإذ صـــيح فيـــه بالرحيـــل فهتكـــت

علـــي عجـــل أســـتاره وســـتائره

ووحشـــته حتـــى كـــأن لم يقـــم بـــه

أنـــيس ولم تحســـن لعـــين منـــاظره

كـــأن لم تبـــت فيـــه الخلافـــة طلقـــة

بشاشـــتها والملـــك يشـــرق زاهـــره

ولم تجمـــع الـــدنيا إليـــه بهاءهـــا

وبهجتهـــا والعـــيش غـــض مكاســـره

فـأين الحجـاب الصـعب حيـث تمنعـت

بهيبتهـــا أبوابـــه ومقاصـــره

وأيـــن عميـــد النـــاس في كـــل نوبـــة

تنـــوب ونـــاهى الـــدهر فـــيهم وآمـــره ؟

تخفـــى لـــه مغتالـــه تحـــت غـــره

وأولى لمـــن يغتالـــه لـــو يجـــاهره

فمـــا قاتلـــت عنـــه المنايـــا جنـــوده

ولا دافعـــت أملاكـــه وذخـــائره

حلـــوم أضـــلتها الأمـــانى ومـــدة

تناهـــت وحتـــف أوشـــكته مقـــادره

ومغتصـــب للقتـــل لم يخـــش رهطـــه

ولم تحتشـــم أســـبابه وأواصـــره

صـــريع تقاضـــاه الســـيوف حشاشـــة

يجـود بهـا والمـوت حمـر أظـافره

في هذه القصيدة نقل لنا البحترى حادثة قتل المتوكل نقلا نفسّيا حسيّا أمينا. فوضعنا أمام نص شعرى استكمل مقوماته الفنية فهو يصدر عن عاطفة صادقة أشاعت الحرارة والحيوية في الألفاظ والأفكار والصور.

ولننتقل إلي شاعر آخر سخط علي عصره. وما كان سخطه علي مظهر عارض أو عيب طارئ. ولكن عذره من هذا السخط أنه إنسان فنان حساس مصقول النفس مثقف العقل. هذا الشاعر هو ابن الرومى. وهذا شأنه حتى في عتابه لصديقه. يقول ابن الرومى:

يـا أخـى أيـن عهـد ذاك الإخـاءِ

أيـن مـا كـان بيننـا مـن صـفاءِ

أيـن مصـداق شـاهد كـان يحكـى

أنـك المخلـص الصـحيح الإخـاء

كشـفت منـك حـاجتى هنـوات

غُطيـت برهـة بحسـن اللقـاء

تركتنـى ولم أكـن سـيء الظـن

أُسـى الظنـون بالأصـدقاء

ويعدد الشاعر هنوات صديقه القاسم بن عبيد الله الشطرنجي . ويجرى بينهما حوار غريب :[1]

قلت لما بدت لعيني شنعا

رب شوهاء في حشا حسناء

ليتني ما هتكت عنكن سترا

فثويتن تحت ذاك الغطاء

قلن لولا انكشافنا ما تجلت

عنك ظلماء شبهة قتماء

قلت أعجب بكن من كاسفات

كاشفات غواشي الظلماء

قد أفدتني مع الخبر بالصا

حب أن رب كاشف مستضاء

والقصيدة تبين عتاب ابن الرومى لصديقه . وعتابه يدور بين التساؤل الحزين والغضب الثائر واللوم الرقيق . والقصيدة تبين أيضا حساسية الشاعر . فيتطير . ويتشاءم . ويكبر التوافه . فهو كثير الأحلام والخيال . يتصور الخيال والحلم حقيقة . وهو في هجائه يقف عند نواحى الضعف ويكبرها .

ويقول في بعض مهجويه :

[1] القصيدة كاملة في ديوان ابن الرومى

وجهـــك يـــا عمـــر فيـــه طـــول

وفي وجـــــوه الكـــــلاب طـــــولُ

والكلـــــب واف وفيـــــك غـــــدر

ففيـــــك عـــــن قـــــدره ســـــفولُ

وقـــد يحـــامى عـــن المواشـــى

ومـــــا تحـــــامى ولا تصـــــولُ

وأنـــت مـــن أهـــل بيـــت ســـوء

قصـــــتهم قصـــــة تطـــــولُ

وجـــــوههم للـــــورى عظـــــات

لكـــــن أقفـــــاءهم طبـــــولُ

وعموما كان ابن الرومى يعنى بالتأمل الداخلي فهو ينعكف علي نفسه خاصة بعد موت أبنائه وخاصة ولده الأوسط محمد . وإذا كان ابن الرومى قد أضاف جديدا إلي القصيدة العربية القديمة لتحليله الدقيق لما يجده في نفسه . وما يعرضه علي عقله من أفكار وما يصوره له خياله فقد لعبت ثقافته الواسعة دورها في جعل تجربته الشعرية تقوم علي التقصى والبحث والمناقشة والتحليل و يظهر ذلك واضحا فى قصيدة يرثى فيها ابنه محمد يقول فيها :

بكاؤكُما يشْفي وإن كان لا يُجْدي فجُودا فقد أوْدَى نَظيركُمُا عنـدي

بُنَيَّ الذي أهْدَتْهُ كَفَّايَ للثَّـــرَى ... فَيَا عِزَّةَ المُهْدَى ويا حَسْرة المُهـدِي

تَوَخَّى حِمَامُ الموتِ أوْسَطَ صبْيَتي ... فلله كيفَ احْتار وَاسطَةَ العِقْــدِ

طَوَاهُ الرَّدَى عنّي فأضحَى مَـزَارُهُ ... بعيداً على قُرْب قريباً على بُعْــدِ

لقد أنْجَزَتْ فيه المنايا وعيدَهـــا ... وأحْلَفَتِ الآمالُ ما كان من وعــْدِ

لقَد قلَّ بين المهْد واللَّحْد لُبْثـــهُ ... فلم يَنْسَ عهْدَ المهْد إذ ضُمَّ في اللَّحْدِ

وأولادُنا مثْلُ الجَوارح أيُّهـــــا ... فقدْناه كان الفاجِعَ البَيِّنَ الفقــدِ

ولننتقل إلي شاعر آخر أضاف تشكيلا بعيد المدى للتجربة الشعرية في القصيدة العربية القديمة . هذا الشاعر الطموح هو المتنبى . وكما سبق أن أوضحنا كانت للقصيدة الجاهلية مقدمة طللية كانت صادقة في أول الأمر . لكن مع تطور الشعر العربي أصبحت شيئا تقليديا يضعه الشعراء في بدء قصائدهم . وأصبحت المقدمة الغزلية هي اللحن المميز للقصيدة في صورتها التقليدية . وبرغم محاولات الشعراء بالخروج علي المقدمة الغزلية إلا أن هذه المقدمة فرضت سلطانها الفنى علي الشعر العربي فترة طويلة . والمتنبي من الذين حرصوا علي هذا التقليد الفنى في أكثر قصائده . ورغم فحولة المتنبي الفنية لم يفكر تفكيرا جديّا في التخلص من هذه المقدمة أو الخروج عليها . ومع ذلك فقد اتخذ من بعض هذه المقدمات مجالا للتعبير عن نفسه وما يجول فيها من مشاعر وانفعالات ففي كافورياته رسم صورا رائعة صادقة لنفسيته وما يدور فيها من مشاعر وأحاسيس . فمطالع الكافوريات لم تكن مقدمات تقليدية ولكنها صور واضواء لنفسيته في هذه الفترة فقد فارق سيف الدولة هاربا من كيد الحاشية إلي كافور الإخشيدى ولم يكن يتمنى هذا الفراق فكم ملأه

الحزن والحسرة والأسف علي فراق ذلك الأمير الكريم . وكم سخط علي الحظ العاثر الذى فرق بينهما . ورغم حزنه فهو يملك نفسا تأبى الهوان وترفض الذل . وتحت تأثير هذه المشاعر والأحاسيس نظم قصيدته الأولي في مدح كافور فيقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى

صديقا فأعيا أوعدوا مداجيا

فما ينفع الأسد الحياء من الطوى

ولا تتقى حتى تكون ضواريا

حببتك قلبي قبل حبك من نأى

وقد كان غدارا فكن أنت وافيا

وأعلم أن البين يشكيك بعده

فلست فؤادى إن رأيتك شاكيا

فإن دموع العين غدر بربها

إذا كن إثر الغادرين جواريا

وحديث المتنبى هنا عن الحب والمرأة للتمويه والتعمية فما الحبيبة الغادرة التى يشكو بعدها سوى سيف الدولة ومقدمة المتنبي ليست تقليدية لأنها تشعرنا بمدى ألمه لفراق سيف الدولة الذى كان وده له صافيا :

أقـل اشـتياقا أيهـا القلـب ربمـا

رأيتـك تصـفي الـود مـن لـيس صـافيا

ومع ذلك فنفسية المتنبي الطموح واضحة في كل أشعاره مما يؤجج شاعريته ويغمسها بالحماس الجارف . ولنتأمل إحدي سيفياته :

ليـــالي بعـــد الظـــاعنين شـــكولُ

طـــوال وليـــل العاشـــقين طويـــلُ

يُـــبِنَّ لـــي البـــدر الـــذى لا أريـــده

ويُخفـين بـدرا مـا إليـه سـبيلُ

ومـا عشـت مـن بعـد الأحبـة سـلوة

ولكننـــــى للنائبـــــات حمـــــولُ

وإن رحـــيلا واحـــدا حـــال بيننـــا

وفي المـوت مـن بعـد الرحيـل رحيـلُ

إذا كـــان شـــم الـــروح أدنـــى إلـــيكم

فـــلا برحتنـــى روضـــة وقبـــولُ

وطموح الشاعر لا يفارقه حتى ساعات ارتوائه بالماء الذى يغص به . فهو يتذكر أحبابه الذين رحلوا ونزلوا بمكان فيه ماء :

يُحرِّمُـــه لمـــح الأســـنة فوقـــه

فلـــيس لظمـــآن إليـــه وصـــول

ألم يـر هـذا الليـل عينيـك رؤيتـى

فتظهـــر فيـــه رقـــة ونحـــول

لقيـت بـدرب القلـة الفجـر لقيـة

شـفت كمـدى والليـل فيـه قتيـل

ويومـا كـأن الحسـن فيـه علامـة

بعثـت بهـا والشـمس منـك رسـول[1]

ورغم أن الإطار الخارجي للقصيدة هو بكاء من رحلوا عن الديار شأن الشعراء الجاهليين إلا أن هذه المقدمة تظهر ما في نفس المتنبي من طموح . فهو يبحث عن الفخر بأن يكون واليا سواء في الشام أم في مصر . وكما قلنا سابقا فقد استخدم هذه المقدمات للتعمية والتضليل . وهو وإن كان يمدح سيف الدولة في القصيدة فلا ينسى الافتخار بنفسه :

أنـا السـابق الهـادى إلـي مـا أقولـه

إذا القـول قبـل القـائلين مقـولُ

ومـا لكـلام النـاس فيمـا يريبنـى

أصـول ولا للقـائلين أصـولُ

أعـادى علـي مـا يوجـب الحـب للفتـى

وأهـدأ والأفكـار فـىّ تجـولُ

(١) القصيدة كاملة في ديوان المتنبى

سـوى وجـع الحسـاد داو فإنـه

إذا حـل في قلـب فلـيس يحـولُ

ولا تطمعـن مـن حاسـد في مـودة

وإن كنـت تبـديها لـه وتنيـلُ

وإنـا لنلقـى الحادثـات بـأنفس

كـثير الرزايـا عنـدهن قليـلُ

يهـون علينـا أن تصـاب جسـومنا

وتسـلم أعـراض لنـا وعقـولُ

وهكذا كان الإطار القديم للقصيدة العربية عند المتنبي مجالا يتحرك منه حركة نفسية نلمح فيها صدق العمل الشعرى وإضفائه لونا من الوحدة الشعورية المعبرة عن طموح صاحبها .

والأمر في شعر أبى العلاء المعرى ليس بعيدا عن شعر كل من ابن الرومى والمتنبي . فإن كان ابن الرومى متأملا خائفا وكان المتنبي طموحا مجازفا فقد كان أبو العلاء زاهدا متقشفا فهو لا ينظر إلي الدنيا بعين الراغب . بل بما تسوقه إلينا من كروب وآلام .

يقول أبو العلاء :

لا تشـرفن بـدنيا عنـك معرضـة

فمـا التشـرف بالـدنيا هـو الشـرفُ

واصـرف فـؤادك عنهـا مثلمـا انصـرفت

فكلنـا عـن مغانيهـا سننصـرفُ

يـا أم دفـر لحـاك اللّه والـدة

فيـك العنـاء وفيـك الهـم والسـرفُ

لـو أنـك العـرس أوقعـت الطـلاق بهـا

لكنـك الأم مـالى عنـك منصـرفُ

وقد هاجم أبو العلاء فكرة الزواج والنسل في شعره كثيرا . مما جعل التشاؤم يحيط بحياته وأفكاره . لقد كانت الحياة في عصر المعري مضطربة فقد عمّ الفساد وانتشر البلاء . يضاف إلي ذلك محنته في بصره جعلته يشك في كل الحقائق . وليس من شك في أن اللزوميات ترينا أبا العلاء حائرا متشائما شاكا . فهو لم ير من الدنيا ما يقربه منها . فهو ينظر إليها من خلال منظار الموت الذى يلف الكثير من أبيات شعره . وتبلغ قمة غربة المعرى **في قوله** :

غـير مجـد في ملتـى واعتقـادى

نـوح بـاك ولا تـرنم شـادِ

وشـبيه صـوت النعـى إذا قـيس

بصـوت البشـير في كـل نـادِ

أبكـت تلكـم الحمـائم أم غنـت

علـي فـرع غصـنها الميـادِ

إن حزنـا في سـاعة المـوت أضـعا

ف سـرور في سـاعة المـيلادِ

صـاح هـذى قبورنـا تمـلأ الرحـب

فـأين القبـور مـن عهـد عـادِ ؟

خفـف الـوطء مـا أظـن أديـم الـ

أرض إلا مـن هـذه الأجسـادِ

وقبـيح بنـا وإن قـدم العهـد

هـوان الآبـاء والأجـدادِ

سـر إن اسـتطعت في الهـواء رويـدا

لا اختيـالا علـي رُفـات العبـادِ

رب لحـد قـد صـار لحـدا مـرارا

ضـاحك مـن تـزاحم الأضـدادِ

تحـب كلـها الحيـاة فمـا أعجـ

ب إلا مـن راغـب في ازديـادِ

خلـق النـاس للبقـاء فضـلت

أمـة يحسـبونهم للنفـادِ

إنمـا ينقلـون مـن دار أعمـال

إلـي دار شـقوة أو رشـادِ

ضـــجعة المـــوت رقـــدة يســـتريح

الجسم فيهـا والعـيش مثـل السـهادِ

وهكذا اتخذ أبو العلاء من موت صديقه ميدانا يبث فيه رؤيته الملونة بغربته ، وبالتالي لم تسر القصيدة علي نسق شعر الرثاء ، فهو لا يقف عند تجربة خاصة ضيقة ، ولا يقف عند سرد صفات الميت ، بل ينطلق إلي جو أرحب ويأتى بأحكام عامة تمس أعماق الحياة ، وما يرتبط بها من أسرار.

و عموما لم تتغير أغراض الشعر عن العصر الأموي فاستمر شعر المديح و الفخر والرثاء و الوصف و الغزل و الهجاء

ومن أشهر شعراء الهجاء فى العصر العباسى دعبل الخزاعى ، يقول فى هجاء الخليفة المعتصم:

بَكى لِشَتاتِ الدينِ مُكتَئِبٌ صَبٌّ ... وَفاضَ بِفَرطِ الدَمعِ مِن عَينِهِ غَربُ

وَقامَ إِمامٌ لَم يَكُن ذا هِدايـــــةٍ ... فَلَيسَ لَهُ دينٌ وَلَيسَ لَهُ لُـــــــبٌّ

وَما كانَتِ الأَنباءُ تَأتي بِمِثلِـــهِ ... يُمَلَّكُ يَوماً أَو تَدينُ لَهُ العُـــــربُ

وَلَكِن كَما قالَ الَّذينَ تَتابَعوا مِنَ ... السَلَفِ الماضي الَّذي ضَمَّهُ التُربُ

مُلوكُ بَني العَبّاسِ في الكُتبِ سَبعَةٌ ... وَلَم تَأتِنا عَن ثامِنٍ لَهُمُ كُتـــــبُ

كَذَلِكَ أَهلُ الكَهفِ في الكَهفِ سَبعَةٌ ... خِيارٌ إِذا عُدّوا وَثامِنُهُم كَلـــــبُ

وَإِنّي لَأُعلي كَلبَهُم عَنكَ رِفعَـــــةً ... لأَنَّكَ ذو دَنبٍ وَلَيسَ لَـهُ دَنـــبُ

و كما قلنا حاول شعراء العصر العباسى التخلص من مقدمات القصيدة أو إيجازها و هذا ما رأيناه فى قصيدة دعبل فهي تتحدث في موضوع واحد ، فبدأ

بمقدمة تشبه المقدمة الطللية اكتفى فيها ببيت واحد يترابط فى وحدة عضوية بباقى الأبيات ، وبرغم أن القصيدة من قصائد الهجاء التى تخلص منها الشعر فى صدر الإسلام ، وعلى أي حال القصيدة تعطينا الاحساس بدور الشاعر فى علاج مشاكل المجتمع و فى سخطه على الظلم و القصيدة تُصلح لكل زمان و مكان فهي صرخة ضد الاستبداد مهما كان القائم به.

ومن الشعراء الذين برعوا فى المديح فى هذا العصر " العكوك " يقول فى مدح الأمير " أبو دُلَف "

إنَّما الدُنيا أَبو دُلَـــــــفٍ بَينَ مَغزاهُ وَمُحتَضَرِه
فَإِذا وَلّى أَبو دُلَـــــــفٍ وَلَّتِ الدُنيا عَلى أَثَرِه
كُلُّ مَن في الأَرضِ مِن عَرَبٍ بَينَ باديهِ إِلى حَضَرِه
مُستَعيرٌ مِنكَ مَكرُمَـــــةً يَكتَسيها يَومَ مُفتَخَرِه

و قال فى قصيدة أخري فى " أبو دلف " :

أَنتَ الَّذي تُنزِلُ الأَيّامَ مَنزِلَهـــا وَتَنقُلُ الدَهرَ مِن حالٍ إِلى حالِ
وَما مَدَدتَ مَدى طَرفٍ إِلى أَحَدٍ إِلّا قَضَيتَ بِأَرزاقٍ وَآجـــــالِ

وقد سارت القصيدة على نمط القصيدة القديمة إلا انها قد تخلصت من المقدمات و تحدثت فى غرض واحد هو مدح أبى دلف و كما نلاحظ أن الشاعر اختار الألفاظ السهلة التى تعبر بوضوح عن فكرته التى امتزجت بأحاسيسه و مما يلفت النظر فى القصيدة قافية الهاء الساكنة التى تدل على قرب الممدوح من قلب الشاعر ، و رغم ما فى العصر العباسى من مجون و لهو فقد ظهرت مجموعة من

الشعراء تدعو إلى الزهد و العودة إلى الدين منهم أبو العتاهية و الإمام الشافعي و غيرهما ، ***يقول الإمام الشافعي*** :

تَعصي الإلَهَ وَأَنتَ تُظهِرُ حُبَّهُ ... هَذا مَحالٌ في القِياسِ بَديعُ

لَو كانَ حُبُّكَ صادِقاً لَأَطَعتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطيعُ

في كُلِّ يَومٍ يَبتَديكَ بِنِعمَةٍ ... مِنهُ وَأَنتَ لِشُكرِ ذاكَ مُضيعُ

و يقول أبو العتاهية :

سُبحانَ مَن يُعطي بَغَيرِ حِسابِ ... مَلِكِ المُلوكِ وَوارِثِ الأَربابِ

وَمُدَبِّرِ الدُنيا وَجاعِلِ لَيلَها ... سَكَناً وَمَنزِلِ غَيثِ كُلِّ سَحابِ

يا نَفسُ لا تَتَعَرَّضي لِعَطِيَّةٍ ... إِلاّ عَطِيَّةَ رَبِّكَ الوَهّابِ

يا نَفسُ هَلّا تَعمَلينَ فَإِنَّنا ... في دارِ مُعتَمَلٍ لِدارِ ثَوابِ

وعموما لنا وقفة نتأمل فيها المراحل التى مرت بها القصيدة العربية القديمة بعد الجاهلية ، نتبين فيها عناصر التقليد والتجديد التى تحكمت في مفهوم وحدتها وصولا إلي العصر الأندلسي . وقد سبق أن قلنا إن الركود أصاب القصيدة العربية في مبناها ومعناها . وإن كان هذا الركود قد زال ونشطت صورة التجديد في بيئات الحجاز والكوفة والشام في شكل القصيدة حيث تغيرت ظروف الحياة الإسلامية بامتلاك الأمويين ناصية الحكم . ورغبتهم في إبعاد أهل الحجاز عن تيارات السياسة . فكثرت قصائد الغزل بصورة مفرطة دليل الانهماك في حياة اللهو . وبذلك تغيرت بنية القصيدة وأصبحت تشتمل علي غرض واحد . وتنوعت أوزان الشعر القديمة ليلائم جو الغناء والمرح واللهو . كذلك اتسمت الألفاظ بالرقة

والعذوبة وبعدت عن اللون الخطابي . ورغم ذلك فقد سيطرت القصيدة الجاهلية علي شعراء البصرة وخاصة شعراء النقائض . مضافا إلي ذلك سيطرة علماء اللغة والنحاة علي الحياة النقدية . وهنا كانت الطامة الكبري . فقد لجأ الكثير من الشعراء إلي التحايل للتخلص من عمود الشعر فأخذوا يبدأون قصائدهم بوصف الخمر كما فعل أبو نواس وتحللوا من البناء الجاهلي إلي مقطوعات . وحاولوا تجديد القوافي . وكانت قمة التحايل ظهور البديع علي يد أبى تمام . وكمحصلة لاتصال العرب بالفرس ظهرت المبالغات في المدح . ثم جاء البلاغيون وقسموا العمل الفنى إلي لفظ ومعنى ووجهوا كل اهتمامهم إلي السرقات الشعرية دون الاهتمام بوحدة العمل الفنى .

ومن الشعراء من حاول إرضاء النقاد . فلجأ إلي عمود الشعر في معظم شعرهم كالبحترى . ومحصلة ما قلناه إن سلطان الشعر القديم جنى علي الشعر العربي إلا في بعض الومضات النفسية الموحدة الخاطفة عند ابن الرومى والمتنبي وأبى العلاء المعرى وأبي نواس وأبي فراس الحمدانى .

الفصل الثانى :

النثر في العصر العباسى

تطور النثر في العصر العباسي الأول إذ تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية . وكل ثقافات الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية وتم هذا التحول عن طريقين :

الأول : طريق النقل والترجمة .

الثانية : تعرب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلي العربية بكل ما ورثوه من فنون المعرفة وقد أخذ النثر يتطور تطورا واسعا إذ حمل خلاصة هذه المدنيات .وكان ذلك إيذانا بتعدد شعب النثر وفروعه . فقد أصبح فيه النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر الأدبي والنثر التاريخي . وقد تأثر النثر الأدبي باللغات الأجنبية وخاصة الفارسية . فقد ترجم ابن المقفع قصص "كليلة ودمنة" كما قام بنقل الكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونظم الحكم والسياسة . مما كان سببا في وجود الرسائل الميدانية . وفي نشوء الرسائل الأدبية .

ولم يقف النثر عند الترجمة والتعريب بل امتد إلي وضع العلوم اللغوية والشرعية . والعلوم الطبيعية والكونية . وكما أثمرت العقلية في المجال العلمي أثمرت في المجال الفلسفي .

وقد استحدث الكتّاب أسلوبا جديدا يحتفظ للغة بكل مقوماتها . كما يحتفظ بالوضوح والبعد عن الألفاظ الغامضة والمعاني المبهمة . وقد قام أسلوب الكتّاب علي هجر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية التى تنبو علي ذوق أهل الحضر كما قام بالارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته والملاءمة بين الكلمة والكلمة في الجرس الموسيقي .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين عنوا في هذا العصر بمعرفة الأصول التي تقوم عليها براعة القول وقد نشطت الخطابة السياسية في مطلع هذا العصر إذ اتخذها العباسيون أداة في بيان حق العباسيين في الحكم علي نحو ما يتضح في خطبة أبى عباس السفاح حين بويع بالخلافة في الكوفة . ففيها يتحدث عن رحم العباسيين وقرابتهم من رسول الله ﷺ تاليا من القرآن الحكيم بعض الآيات الخاصة بأهل بيت النبوة من مثل : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت . ويطهركم تطهيرا) . ثم يقول : " زعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة منا . فشاهت وجوههم . بم ولم أيها الناس . وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم . وبصرهم بعد جهالتهم . وأنقذهم بعد هلكتهم وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر" .

وفي عهد أبي جعفر المنصور تندلع ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن ومن قوله في بعض خطبه : "إن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين . والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك . وعملوا بغير

كتابك، وغيروا عهد نبيك r وأمنوا من أخفت ، وأخافوا من أمنت ، فاحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تُبق علي الأرض منهم أحدا" .

ولم تلبث الخطابة السياسية أن ضعفت . لأنها تزدهر حين تكفل للناس حرياتهم السياسية – بسبب تكميم الأفواه وبطش الحكام .

وقد ضعفت الخطابة الحفلية أيضاً واقتصرت علي بعض المناسبات كأن يموت للخليفة بنت أو ابن ، أو يموت خليفة ويتولي من بعده خليفة جديد ، كقول "ابن عتبة" للمهدى حين هنأه بالخلافة وعزاه في أبيه المنصور: "آجر الله أمير المؤمنين علي أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عقبي أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين : فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عنده أعظم الرزية" .

وعلي هذا النحو تضاءلت الخطابة الحفلية كما تضاءلت الخطابة السياسية، ولم يبق إلا الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ، وقد شارك الخلفاء فيها ، وقد كان الكثير من الوعاظ يمزجون وعظهم بالقصص الديني ، وتفسير بعض أى القرآن .

وقد كانت المناظرات من أهم الفنون النثرية ، وكانت تشغل الناس علي اختلاف طبقاتهم ، وكانت مجالس البرامكة والمأمون تكتظ بهذه المناظرات ، ومن النثر الأدبي أيضاً الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات ، وبذلك نشطت الكتابة في ذلك العصر بل صارت الجسر الذى يصل به الشخص إلي أرفع المناصب

. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن المادة الفارسية السياسية والأخلاقية من أهم المؤثرات في رقي الكتابة الديوانية وتطورها .

ومن الكتاب النابهين في عهود الخلفاء "عمارة بن حمزة" كاتب السفاح والمنصور . ومن كتاب المنصور أيضاً مسعدة بن سعد . ويوسف بن صبيح . وجبل بن يزيد . وغسان بن عبد الحميد . ومن كتاب عصر المهدى أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار . ومحمد بن حجر . ومن كتّاب عصر الرشيد يحيى البرمكى . وجعفر بن يحيى . وإسماعيل بن صبيح . وقمامة بن أبي يزيد . وجعفر بن محمد بن الأشعث . وعمر بن مهران . ومن كتّاب عصر الأمين الفضل بن الربيع . وموسى بن عيسي . ومن الكتاب الذين اشتهروا في عهد المأمون أحمد بن يوسف . وعمرو بن مسعدة . ومن كتاب عصر المعتصم والواثق محمد بن عبد الملك الزيات .

ومن النثر الأدبي التوقيعات وهي عبارات موجزة بليغة تحمل تظلمات الأفراد ، تعود ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقعوا عليها . وقد اشتهر الفضل بن سهل بتوقيعاته البليغة المحكمة . فمن ذلك توقيعه علي قصة مظلوم "كفى بالله للمظلوم ناصرا" وتوقيعه علي كتاب لتميم بن خزيمة بن خازم :

"الأمور بتمامها . والأعمال بخواتيمها . والصنائع باستدامتها . وإلي الغاية جرْى الجواد . فهناك كشفت الخبرة قناع الشك . فحُمد السابق . وذم الساقط" .

ومن النثر الأدبي أيضاً الرسائل الإخوانية والأدبية . ونقصد الرسائل التي تصور عواطف الأفراد . وكانت هذه العواطف تؤدي في العصر الأموى بالشعر ونادرا ما تؤدي بالنثر . ولكن في العصر العباسي زاحم النثر الشعر لمرونته ويسر تعابيره .

وقدرته علي تصوير المعاني حتى أننا وجدنا بعض الشعراء كأبي العتاهية يتخذون من النثر أداة للتعبير عن مشاعرهم . وتدور في كتب الأدب رسائل إخوانية كثيرة دبّجها كتّاب الدواوين والشعراء . وممن برعوا في ذلك ابن المقفع . ومحمد بن زياد الحارثى . وبذلك لم يترك الكتّاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه . وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطنبين . وقد مضوا مثل الشعراء يعرضون لوصف الطبيعة.

ومن الرسائل الإخوانية رسالة "الحسن بن وهب" مشيدا ببلاغة ابن الزيات : "أنت حفظك الله – تحتذى من البيان في النظام مثل ما يقصد بحر من الدرر في الأفهام . والفضل لك – أعزك الله – إذ كنت تأتي به في غاية الاقتدار . علي غاية الاقتصار . في منظوم الأشعار . فتُحل متعقده . وتربط متشرده . وتنظم أشطاره . وتجلو أنواره . وتفصله في حدوده . وتخرجه في قيوده . ثم لا تأتي به مهما اقتبسته مشتركا فيُلبس . ولا متعقدا فيطول . ولا متكلفا فيحول . فهو كالمعجزة تضرب بها الأمثال . يُشرح فيها المقال . فلا أعدمنا الله هداياك واردة . وفرائدك وافدة" .

وقد عرف الكتّاب في هذا العصر الرسائل الأدبية التي يقصد بها التفكيه والترويح عن النفس . وبذلك نستطيع أن نقول عنها إنها كانت تعبيرا جياشا عن عواطف الكتّاب ومشاعرهم زاحمهم في التعبير عنها الشعراء باتجاههم إلي الكتابة النثرية .